۶۵۳۸

مجله	الازهر
تاریخ نشر	رمضان ۱۳۹۷
شماره	۷ سال ۴۹
شماره مسلسل	
محل نشر	مصر
زبان	عربی
نویسنده	ابوالحسن الندوی
تعداد صفحات	۱۲۲۱ - ۱۲۱۱
موضوع	نظرات فی کتاب الله
سرفصلها	قصه حنوت حضرت زکریا ع
کیفیت	
ملاحظات	

نظرات فى كتاب الله

للأستاذ العلامة أبو الحسن الندوى

آيات من سورة مريم

قصة تجلت فيها معانى الاعجاز والبلاغة القرآنية وجمال البيان والتعبير ودقة الوصف والتصوير فى أروع مظاهرها ، قصة تجلت فيها رقة العاطفة الانسانية وخلجات النفس البشرية التى تشفق على الحياة وتحرص على بقاء الذكر ووجود الوارث واستمرار النسل — الذى لا يستغرب من الانسان ولا يلام عليه — حتى كأنك تسمع فى هذه الآيات دقات القلب وهواجس الضمير ، قصة تجلت فيها الانسانية الحساسة الضعيفة والنبوة الكريمة القوية جواراً بجوار وجنبا بجنب ، فجاءت تصويرا صادقا ناطقا لنبى انسان ، أو انسان نبى ، وأصبحت قطعة أدبية لا نظير لها فى آداب الأمم ، وفيما عرفه الانسان من بلاغة وبيان لأنه « تنزيل من حكيم حميد » وجاءت حلاوة الجرس وجمال النغمة ورقة الألفاظ فزادت جمالا الى جمال وطابقت روح القصة وموضوعها .

انسان أكرمه الله بالنبوة وحمله أمانة الحياة وأمانة الشرف الذى ورثه كابراً عن كابر وأمانة الرسالة الكريمة ، وابتلى بجفاء الأقران وظلم الاخوان ، ولم يزل يتحمل كل ذلك فى قوة وجلد وصرامة حتى طعن فى السن ودخل فى المرحلة التى لا يطمع فيها الانسان فى حياة طويلة ويلتجىء فيها الى مؤنس ورفيق والى خليفة يبقى به ذكره وتعيش به رسالته ، وقد شاهد النبى زكريا — الذى نقرأ قصته فى هذه الآيات فى حياته ما ينذره بقرب الرحيل

وانقطاع العمر وهو نذير الشيب الذى أوهن العظم وبيض الشعر . هناك هاجت العاطفة الانسانية التى يقودها الاشفاق على الرسالة والخوف من الضياع وهو رجل وحيد فريد ليس له ولد يأنس اليه ولا خليفة يعتمد عليه ، وكم ضاعت الأمانة بموت أصحابها وفقدان من يقوم بها ويحدب عليها — فدعا ربه أن يرزقه ولدا تقر به عينه ويحمل رسالته ، ولكنه — لما أراد أن يدعو — خاف ، أن يسخر منه أقاربه ومن حوله ممن لا يخافون الله ولا يعرفون قدرته ولا يعرفون سمو عاطفة زكريا وشرف غرضه ، يضحكون لأنه يدعو للولد فى هذه السن العالية التى لا يولد فيها — لمثله — عادة ، انه خاف السفاهة والشماتة ، وقد يخافها الأنبياء الكرام والرجال العظام ، وقد قال النبى هارون « فلا تشمت بى الأعداء » ، فدعا ربه فى احتراس واسرار ، ولكن فى جد واصرار : « اذ نادى ربه نداء خفيا » ، انه كان يشعر أنه تقدم فى السن ، ودلت القرائن والآثار على أنه سيغادر الدنيا من غير عقب وخليفة ، ولكنه واثق بقدرة الله ، مؤمن بأن الله على كل شىء قدير ، انه قرأ قصة ابراهيم فى التوراة وكيف رزق الولد فى سن أعلى من سنه وكيف قال لما بشر بالولد « أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون » وهكذا قال زكريا « رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا » لقد تجلت فيها العاطفة مع العقل والعلم ، والحب مع الايمان واليقين فكان خير دعاء يدعو به عبد يؤمن بقدرة ربه .

ولم يكن مجرد دعاء رجل لا هم له الا فى الولد ، بل هو دعاء نبى يحب أن يكون له ولد يحمل أعباء دعوته ووراثة آبائه الصالحين « يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » .

ولما بشر باجابة الدعاء هاجت فيه الانسانية وتجاربها ، قال : «رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا » .

وطلب على هذا الحادث الغريب آية يعرف بها قرب وقوعه ويزداد بها ايمانا ، فمنح آية عدم القدرة على الكلام ثلاثة أيام ، ومن قدر على سلب قوة يملكها الانسان قدر على منح قوة لا يملكها الانسان .

وهكذا كان حتى احتاج الى الحديث الى قومه بالاشارة .

وجاء يحيى الولد البار الرشيد الذى أكرمه الله بالعلم والحكم فى الصبا ، والحنان والزكاة والتقوى والبر فى الكبر .

وهكذا تنتهى هذه القصة الجميلة البليغة لتبتدىء قصة أخرى وليؤمن الانسان بقدرة الله وفضله .

مجتمع فى فرد وأمة فى نفس واحدة

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

(سورة المؤمنون /١-١١)

قد مرت بكم فى الآيات صورة انسانية ، صورة تزخر بالحياة ، وتزهو بالصفات ، وتفتن بالملامح والقسمات ، فبالله هل رأيتم صورة فى التاريخ وفى الشعر والأدب وفيما حولكم أجمل وأكمل من هذه الصورة التى مرت بكم آنفا ؟ !.

انها صورة انسانية تجمع بين الفضائل الخلقية والمكارم الفردية والاجتماعية التى لا تجتمع فى انسان أو فى جماعة - الا فى النادر حتى اعتقد كثير من الناس حتى من علماء النفس والأخلاق أنها أضداد وضرائر ، قوة فى ايمان ، وخشوع فى العبادة ، واعراض عن اللغو ، ومواساة للفقراء وعطف على الضعفاء ، وعفة عن المحارم ، واقتصار على التمتع المباح ، ووقوف عند الحدود ، ورعاية للعهد ، وحفظ للأمانة ، ومحافظة على العبادات والواجبات فياله من فرد يتصف بهذه الأوصاف كلها ، انه

مجتمع فى فـرد ، وأمـة فى نفس واحـدة .

وتصوروا الفـرد الذى يتصف بهذه الصفات فى واقع الحيـاة ، تصـوروا رجـلا اذا قام أمام ربه خشع ورق قلبه فعيناه تهطلان دمعا ولسانه يفيض ذكرا وشكرا ، واذا خرج من المسجد وصادف فى طريقه لغوا ــ وما أكثره فى الحيـاة ــ أعرض عنه فى حيـاء وكبر نفس ، سخيا بذات يده على الفقراء ، ضنينا بنفسه وشهوته على ما لا تحل له من النساء ، ثابتا راسخا فى فتنـة المال والجمال اذا وسدت اليه الأمانة فى الأموال والأعراض والحكم والولاية ــ فكلها أمانات ــ لم يخن فى أمانته ، واذا وعد أو عاهد لم يغدر بذمته ، واذا هتف هاتف ربه أسرع الـى اجابته ، فكان فى كل حق من حقوق الله وحقوق العباد ، قويا أمينـا ، نشـيطا .

وتصوروا مجتمعا يتـكون من هؤلاء الأفراد ، يتكون من أصحاب الايمـان واليقـين ، من العبـاد الخاشعين ، والأغنياء المحسـنين ، والأقوياء الزاهـدين ، والقضـاة العادلين ، والولاة الصالحين ، ، كل فرد فيه قائم بحقه واقف عند حده ، خاشع أمام ربه ، ناصح لاخوانه ، ألا يسعد هذا المجتمع ولا يسـود عليه السـلام والهدوء والسكينة ، ولا ينجو من مهالك الدنيا والآخرة؟ انه مجتمع مثـالى قـد بلغ ذروة السعادة والفلاح فى الدنيا والآخرة ، وان من يتصف بهـذه الصـفات الكريمة التى تجمع بـين الايمـان والعمل يدخل الجنـة بسلام ويحل منها المحـل الأعلى « أولئـك هم الوارثون الذين يرثون الفـردوس هم فيها خالدون » .

ثم ذكر الله مبدأ خلق الانسان ، وما مر به فى وجوده ونشـأته من أدوار وأطوار من الطين الى الجنين ومن ماء مهين ، والى انسان كامل مبين ، ثم ما ينتهى اليه بعد اتمـام دورة الحياة ثم البعث بعد الممات ، كل ذلك مما يدل على عجز الانسان وضـعفه وفقـره وضـآلته ، وقـدرة الله وقـوته ، وحـكمته وعجائب صنعه ، حتى لا يغتر بنفسه وفضائله ويعلم أن كل ذلك صدقة من ربه ، وجود منه على عبـده ، فلو شاء جرده من هـذه الفضائل

كلها كما فعل بكثير من عباده ، « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين » .

وأضاف الى ذلك ما ذكر من بدائع خلقه ولطائف صنعه من انزال الأمطار ، وانشاء الجنات والأشجار ، وخلق الدواب والأنعام ، وما وضع فيها من منافع ، ليكون أدعى للشكر وأدعى لمعرفة الله سبحانه وتعالى ، والخضوع أمامه .

الله نور السموات والأرض

« الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم ، فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » (سورة النور / ٣٥ ـ ٣٨)

ان الآيات الجميلة الرائعة التى سمعتموها تحدثنا عن هذا الكون الذى نعيش فيه ونهيم به حبا وغراما ، فى أسلوب جديد أسلوب الوحى الالهى ، أسلوب الأنبياء المرسلين ، الذين انكشفت لهم الحقائق ، واهتدوا من الكون الى فاطر الكون ، وسعدوا بالمشاهدة واليقين ، ولقد قال قائلهم وقد رأى الشمس تغيب فى الأفق : « انى برىء مما تشركون » ، انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » وقد قيل عنه : « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » .

حدثتنا هذه الآيات عن سر الحياة ، عن سر القوة والحركة والنشاط ، عن سر البهجة والأنس ، عن سر الجمال الفاتن ، عن سر كل

ما فى هذا العالم من حسن وجميل وحى نام .

« الله نور السموات والأرض » هذا هو النور الذى فاض على هذا العالم فأضاء الكون وأشرقت الأرض بنور ربها .

ولكنه نور لا كالنـور « ليس كمثله شىء » ولـكنه لا يفهم الا بالأمثلة الحكيمة البليغة .. « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنهـا كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة » ولكن هذا النور لا يختص بجهـة دون جهة ، وباقليم دون اقليم ، وبجنس دون جنس ، وبوطن دون وطن ، انه فوق الحدود والجهات ، وفوق الأرض والسماوات ، وفوق الشـعوب والأمم ، والأجنـاس ، والأوطـان والأنسـاب والألوان « رب السموات والأرض وما بينهما ، ورب المشارق » .

وهكذا رد على من خصص الله رب العالمين بشعب خاص ، أو بوطن خاص ، وضيق رحمة الله الواسعة وجوده العام فقال ـ وهو يضرب المثل لنوره ـ « زيتونة لا شرقيـة ولا غربية » ، ثم انه فى افاضة نوره وبث خـيراته وجوده لا يفتقر الى الأسـباب ولا يسـتعين بالوسائط « يضىء ولو لم تمسسه نار » .

ان هذا النور عام قد عم الكون ، وعم الشرق والغرب ، وأشرق على البر والبحر ، والسهل والجبـل ، والحيوان والجماد ، ولكن لا يهتدى اليه الا من فتح الله بصيرته وشرح صدره للايمـان فعرف الله معرفة صحيحة ، وتوصل من الـكون الى فاطر الـكون « أفمن شرح اللـه صدره للاسـلام فهو على نور من ربه » ، وفكر فى هذا العالم بنور من ربه فوصل الى النتائج الصحيحة وطرب بها « يتفكرون فى خـلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هـذا باطلا سبحانك فقنا عـذاب النـار » ، فالاهتداء الى هذا النور سعادة لا ينالها الا من أدركته العناية الالهية والهداية الربانية « يهـدى الله لنوره من يشـاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » .

هذه الهداية عن طريق الأنبياء والرسل الذين أكرمهم الله برسالاته وكتبه فقال : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » ، ولذلك يقول المهتدون يوم القيامة « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق » .

ويبحث عن كل شىء فى محله ومركزه ، ويبحث عن هذا النور وعن هذه الهداية فى المساجد التى أسست على التقوى ، وأقيمت للعبادة والذكر والعلم ، « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه» ولكن الاسلام ، ولكن كتاب الله لا يدعو الى الرهبانية ، انه يدعو الى الاشتغال وأكل الحلال انه يمدح من يجمع بين الدين والدنيا فى الدعاء « ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ويجمع بين التجارة والعبادة فى الحياة بحيث لا تلهيه التجارة والصفق بالأسواق عن أداء الفرائض والصلوات وقد سماهم «الرجال» فقال : « يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة » ، ولا تشغلهم زينة الحياة الدنيا ، وصخب الأسواق عن تذكر يوم شديد عسير لابد منه « يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب» .

حكمة لقمان وموعظة الايمان

« واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الانسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك ، الى المصير ، وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب الى ، ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ، يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى

السموات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير ، يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، ان ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا، ان الله لايحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت الحمير ، ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولاكتاب منير » .

(سورة لقمان ١٣ ــ ٢٠)

سجلت الصحف السماوية وسجل الأدب الدينى مواعظ دينية كثيرة منها هذه الموعظة اللقمانية التى هى من أبلغ هذه المواعظ وأجمعها ، وقد تجلت فيها حكمة الأنبياء ودعوتهم فى أجمل مظاهرها وأروعها اذن لا غرابة اذا ضرب المثل بحكمة لقمان .

وجه هذه الموعظة والد أكرمه الله بالعقل الحصين والحكمة البالغة التى لا يؤتاها الا الأفذاذ الراسخون فى العلم وقد قال الله تعالى: «ولقد آتينا لقمان الحكمة»، وجهها الى ولده وفلذة كبده فجمعت بين شفقة الآباء وهداية الأنبياء وقد انتقى الوالد الكريم العظيم لولده الحبيب الأثير أصول الحكم وجوامع الكلم ، وفضائل الأعمال ، ومكارم الأخلاق ، فجاءت موعظة فريدة يعمل بها العقلاء فى كل عصر ومصر فينالون سعادة الدنيا والآخرة .

بدأ لقمان فى وعظ ابنه بالنهى عن الشرك وقال فى ايجاز واعجاز « يا بنى لا تشرك بالله ، ان الشرك لظلم عظيم » ، ولا أبلغ فى تصوير الشرك وتهجينه من أن يقال: انه ظلم عظيم ، انه وضع العبادة فى غير محلها وتفريط فى حق الله وأى تفريط فى حق الله وافراط فى حق المخلوق فهو مجموع جنايات وجرائم تجمعها كلمة « الظلم » ومن أظلم ممن أعطى حق الله عبيده ، وترك ملك الملوك، وخضع للذليل المملوك ، فكان كتشبث الغريق بالغريق ، واستغاثة

الرقيق بالرقيق ، وحاجة الفقير الى الفقير ، ولجوء المريض الى المريض .

وقرن الدعوة الى التوحيد بالدعوة الى البر بالأبوين ، ومعرفة حقوقهما ، ولا سيما الأم التى كان جهادها أعظم فى حضانته ونشأته ، « حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين » ، وقد حث الله على معرفة فضلهما وشكرهما لأن منتهما أعظم من المخلوق ، « أن أشكر لى ولوالديك الى المصير » .

ولكن اذا زاحما حق الله وألحّا على الشرك ، فلا طاعة لهما ولا كرامة اذ « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » ، ولكن لا اهانة ولا ايذاء « وصاحبهما فى الدنيا معروفا » ، فلا بأس بالبر والمواساة ، وصلة الرحم أما الاتباع فلا يجوز الا لذوى الهداية والمعرفة والانابة الى الله « واتبع سبيل من أناب الى » .

ولما كان الجمع بين البر بالأبوين وبكل من له حق وفضل وبين مفارقتهما ومجانبتهما فى العقيدة وحقوق الله ، فبر بالأبوين من غير اطاعة فى الكفر والاثم ، وثبات على التوحيد وعبادة الله من غير هضم لحقوق الوالدين ، لما كان ذلك مهمة عسيرة دقيقة لا يطلع على زلاتها الا العليم الخبير قال : « الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

ثم ذكر فى هذه المناسبة اللطيفة أن الله هو الجدير بالعبادة واللجوء والسؤال والدعاء ، اذ لا بد لمن يلجأ اليه ويعتمد عليه فى قضاء الحوائج واسعاف المطالب أن يحيط علمه بالدقيق والجليل ويطلع على الضمائر والخواطر ، فقال : « يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير » .

ثم دعا ابنه الى أمور أساسية فى الدين والأخلاق ، اذا حافظ عليها الانسان وأخذ بها كان عبدا صالحا

وعضوا كريما فى الأسرة الانسانية: منها إقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر والصبر على المصائب ، ومنها التواضع للناس والسداد والاقتصاد فى السيرة والسلوك ، وكل مجتمع سادت فيه الصلاة التى هى حق الله على العباد والتى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر ، وكان أعضاؤه بعيدين عن التكبر والاختيال والاسراف والجفاء ،كان مجتمعا مثاليا ومجتمعا فاضلا كريما يسعد به العالم وتسعد به الحياة .

وختم هذه الموعظة بذكر آلاء الله ونعمه السابغة الظاهرة الباطنة التى توجب الشكر والعبادة والتوحيد وتنشط للعمل بهذه الموعظة المخلصة الرقيقة التى ألقاها عبد مخلص حكيم على ولده العزيز وعن طريقه على « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فقال : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » .

عروج النبوة وهبوط الجاهلية :

« والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنى فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الى عبده ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك اذا قسمة ضيزى ، ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، أم للانسان ما تمنى ، فلله الآخرة والأولى ، وكم من ملك فى

السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم ، ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، فأعرض عن من تولى ، عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى » .

(سورة النجم / ١ ــ ٣٠)

ان الدين الذى لم يزل الأنبياء يأتون به فى عصورهم ، وجاء به محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أخيرا قائم على اتصال الأرض بالسماء واتصال الشهود بالغيب ، واتصال رسل الأرض برسل السماء وتفتح كوة جديدة للعلم واليقين لا عهد لعلماء الطبيعة والآداب بها ولا سبيل لهم اليها ، هذا الاتصال هو الذى يسميه الله بالوحى والرسالة، وكان اتصالا يدين له العالم وتدين له الأجيال البشرية فى أعز ماعندها من العقيدة الصحيحة والمبادىء الصالحة والمدنية الفاضلة، والأخلاق الكريمة ، وأحدث أفضل ثورة وأمثلها وأعدلها وأعمقها وأوسعها فى المجتمع البشرى .

يحكى الله فى مطلع هذه السورة الكريمة البديعة الجميلة التى سميت بسورة النجم ، هذا الاتصال المبارك ، اتصال الرسول الكريم بوحى السماء عن طريق الملك الكريم ويقول مؤكدا : « ما ضل صاحبكم وما غوى » ، ويقول ان الرسالة التى جاء بها لا تقاس على ما انتجته القرائح البشرية والعقول النابغة ، فمصدرها القياس والتجربة ومنبعها الدراسة والممارسة ، ورافعها الهوى والضرورة .

أما الرسالة التى جاء بها محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فمصدرها الوحى والالهام .. « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى » ، فلا يتطرق اليها الشك ولا تبطلها التجارب ولا يعتريها البلى ، ولا تتناقض مع الحقائق ، ولا تفقد حياتها وجدتها فى عصر من العصور .

ثم وصف الله الواسطة الكريمة التى حملت هذه الرسالة الى أفضل البشر بنعوت وصفات فيها الجلال والقوة ، وفيها الروعة والعظمة ، ووصف الجو الذى يكتنف هذا الاتصال بصفات تتصل بعالم الغيب وعالم الروح والملائكة ، وعاد فنفى الوهم والالتباس فى ساعة الوحى وتلقى الالهام ومشاهدة الملائكة والاتصال بعالم الغيب ، فقال : « ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

ثم أقبل الى عبّاد الأوثان وأهل الجاهلية والوثنية فى عصر ظهور الاسلام وقد حرصوا على تخصيص الاناث بالعبادة واشراكها فى الألوهية ، فاللات والعزى ومناة أشهر آلهة الجاهلية العربية وأعظمها اناث ، وآلهة الاغريق القدماء وكثير من الشعوب التى كانت تسكن فى أواسط آسيا اناث ، وقد عرفت واشتهرت كراهة العرب وتذممها من البنات ، حتى شاع وأد البنات فى قبائل كثيرة ، وقد صور القرآن امتعاض العرب الأشراف من بنت تولد تصويرا بليغا دقيقا فقال : « واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء مابشّر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب » .

أقبل الى هؤلاء المشركين الذين جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا وجعلوا لله البنات ولهم البنين فقال : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؛ ألكم الذكر وله الأنثى » ثم قال متهكما ساخرا : « تلك اذا قسمة ضيزى » .

وهكذا الوثنية خرافة وتناقض وأسطورة خيالية « انهى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

وذلك لأن الجاهلية تقوم دائما على الأساطير والحكايات والتقاليد والعادات ، والظنون والقياسات ، والأهواء والشهوات ، « ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس » .

ثم ذكر أن هذه الجاهلية لاتقوم على أساس من العلم واليقين ، انما هى قياس فى قياس وظن وتخمين ، « وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا » .

وذكر أن فى الناس طبقة لا شأن لها بالمعرفة الصحيحة ، والحياة الباقية ، والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ، أكبر همها ومبلغ علمها هذه الحياة الدنيا ورفاهيتها ودعتها ومآكلها ومشاربها ، هذه هى الطبقة التى تضيع فيها حكمة الأنبياء وشفقتهم واخلاصهم وتوجههم ؛ فالأولى الانصراف عنها الى طبقة تبحث عن الهداية ، وتهتم بالآخرة ، « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » .

سيرة فى سورة

اذا سئلت هل اشتمل القرآن على صورة مفردة واضحة الملامح والقسمات لحياة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وطبيعته وتاريخه وخلاصة حياته ؟ .

واذا قيل ان مادة السيرة النبوية وحوادث حياة النبى صلى الله عليه وسلم منشورة مبعثرة فى القرآن فهل جاء ذلك مجموعا مركزا فى مكان واحد ؟ قلت ــ فى غير تردد واضطراب ــ نعم ان سورة الضحى وسورة الشرح صورة ناطقة واضحة الملامح والقسمات وخلاصة بليغة لهذه الحياة الفريدة ؛ اذا تناولها انسان بشىء من الانشراح والتفسير وفصل ما أجمله القرآن كان ذلك كتابا فى السيرة النبوية من أبلغ ما جرى به قلم ومن أصح ما رواه راو « ولاينبئك مثل خبير » .

لقد كانت بعثة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الجاهلية العالمية ــ طلوع الصبح الصادق فى ظلام الليل الغاسق ، وقد كانت كمطلع السحر فى كل يوم يبتدىء كعمود من النور ثم لايلبث أن يتسع ويبهر ضياؤه ويتعالى النهار وذلك هو

الضحى ، وهو تصوير صادق دقيق لما وصل اليه الاسلام ووصلت بفضله الانسانية من الأوج والنبوغ بالتدريج .

وقد كان لهذا الوحى الذى كان مصدر السعادة والاشراق للعالم فترات كانت لتستجم فيها القوى الروحية وتستعيد قوتها وجدتها حتى تستقبل مايفتح الله به عليها من رحمته فى غد بنشاط جديد وتلك حكمة تعاقب الليل الهادىء للنهار الصاخب ، الحكمة التى خفيت على ضعاف العقول فى مكة فقالوا حين فتر الوحى وتوقف بعد وحى غار حراء ، ان محمدا قد قلاه صاحبه فخوطب صاحب الرسالة — صلى الله عليه وسلم — وقيل « ما ودعك ربك وما قلى » وقرر أن مستقبل هذه الرسالة ومستقبل من يحملها الى الانسانية ومستقبل الأمة التى تخلص لها وتجاهد فى سبيلها أعظم وأوسع فى الدنيا والآخرة من أن تقدره العيون الكليلة والعقول الضيقة « وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » ثم صور القرآن الحياة النبوية قبل النبوة فى بلاغة لا بلاغة فوقها واستعرض أدوار اليتم والحيرة والفقر التى مربها هذا الانسان العظيم الذى وجد يتامى العالم وبؤساؤه فى كنفه وتعاليمه حنان الأمومة والأبوة ، وضلال الانسانية سبيل الرشاد وهداية النبوة وفقراء الأمم وصعاليكها عطف الآباء ومواساة الأخوة فقال « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » ثم نبه على أن من شأن من ذاق مرارة اليتم وتعب الحيرة وجهد الفقر أن يشعر بالألم ويعطف على أصحابه .

وجاءت سورة الشرح طرازا آخر من السيرة والصورة ، فقد ذكرت أهم خصائص النبوة وصاحبها الذى ختم به الرسل .

وكل منها عنوان فصل طويل من السيرة وموضوع كتاب ضخم فى التاريخ والتفسير ، قد بدأها الله

بذكر شرح الصدر الذى هو مقدمة العلوم الدقيقة العميقة التى هذه النبوة ومصدر هذه فاضت على العالم ولانظير لها فى التاريخ ومصدر هذه الأخلاق الكريمة التى لا تنبع الا من الصدر الذى شرحه الله وملأه ايمانا وحكمة وحبا ورحمة،ولا يطيقها الا من وسع صدره وقلبه وأشرق بنور الله حتى وسع الانسانية كلها ، ثم ثناه بوضع الوزر الذى أنقض الظهر ، وتاريخ النبوة والاسلام شاهد على ذلك ولا يعرف تأويل هذه الآية الا من قارن بين حياته المكية الأولى والمدنية الأخيرة ، ورأى القوة بعد الضعف،والأنس بعد الغربة ، ورأى الفتح المبين ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، أما رفع الذكر فالعالم بتاريخه وجغرافيته شاهد على ذلك فمن ذا الذى لهجت الألسن والأقلام بالحديث عنه والثناء عليه ومن ذا الذى يدوى العالم باسمه خمس مرات فى كل مكان ، ومن ذا الذى يشغل ذكره الخطباء والمؤلفين الذين لانهاية لهم ، ومن الذى يصلى عليه هذا العدد الضخم وهذا الجم الغفير فى كل عصر ومصر ومن ذا الذى دخل اسمه فى شعار ديانة يدين بها ملايين من البشر ؟ انه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ من بين الأنبياء وقادة الأمم .

اذن فالسورتان خلاصة للسيرة النبوية ومعجزة فى الايجاز والتصوير .

ابو الحسن الندوى

ان تعليم الأدب الأوروبى على الشكل الذى يسود اليوم الكثير من المؤسسات الاسلامية يقود الى جعل الاسلام غريبا فى عيون الناشئة المسلمة . ومثل هذا ــ ولكن الى حد أبعد ــ يصدق على التعليل الأوربى للتاريخ العام ، اذ لا يزال الموقف القديم فيه : « رومانيون وبرابرة » يظهر بجلاء .

الاسلام فى مفترق الطرق . محمد اسد ترجمة د /عمر فروخ

$\overline{3}$

$\overline{3}'$

١٦٥٧